رأى جديد في :

حمـــاد الراوية

الأستاذ السيد يعقوب بكر

— ٦ —

[تتمة]

وأما قصة حماد مع الطرماح بن حكيم ، فقد تكون صادقة ، وقد تكون كاذبة . فنحن لا نملك تصديقها أو تكذيبها . ولكننا نضع بين يدى القارئ ما يقوله الجاحظ (البيان والتبيين ، ج ١ ص ٥٤) فى الطرماح بن حكيم : « ولم ير الناس أعجب حالا من الكميت عدنانيا عصبيا ، وكان الطرماح قحطانيا عصبيا ... وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح لأهل الشام ... ». ومعنى مايقوله الجاحظ أن الطرماح كان يتعصب على أهل الكوفة وكان حماد كوفيا .

وأما قصة حماد مع بلال بن أبى بُردة وذى الرمّة فلا تنصّ على أن حماداً ادعى الشعر لنفسه ، وهو الشعر الذى مدح به بلالا . بل إنها تذكر أن حماداً نسبه إلى بعض شعراء الجاهلية . وهو شعر لا يرويه غير حماد ، وكان يستطيع نسبته إلى نفسه لو أراد . وليس بغريب أن يمدح حماد بلال بن أبى بردة بشعر لم يقله

وأما قصة حماد مع بلال بن أبى بُردة حين أنشده قصيدة الحطيئة ، فقد لا تدل على انتحال حماد . ويؤيد هذا ما يقوله صاحب الأغانى معقباً على هذه القصة (ج ٢ ص ٥١) : « وذكر المدائنى أن الحطيئة قال هذه القصيدة فى أبى موسى وأنها صحيحة ، قالها فيه وقد جمع جيشاً للغزو ... فوصله أبو موسى ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه يلومه على ذلك ، فكتب إليه : إنى اشتريت عرضي منه بها ، فكتب إليه عمر : إن كان هذا هكذا وإنما فديت عرضك من لسانه ولم تعطه للمدح والفخر ، فقد أحسنت » . ونجد كلاماً قريباً من هذا فى الأغانى أيضاً (ج ١١ ص ٢٩) . هذا إلى أنه لايصح من مثل بلال بن أبى بردة ما تنسبه إليه القصة من أنه قال : ولكن دعها تذهب فى الناس ؛ فهو حفيد أبى موسى الأشعرى ، وهو قاض وأمير . يقول الجاحظ فى البيان والتبيين (ج ١ ص ٢٣٨) : « وولى منبر البصرة أربعة من القضاة ، فكانوا قضاة أمراء : بلال . وسوّار ، وعبيد الله ، وأحمد بن رباح . وكان بلال قاضياً بن قاض بن قاض ، وقال رؤبة :

فأنت يا ابن القاضيين قاض ممتّرم على الطريق ماض »

وأخيراً نصل إلى الخبرين اللذين يوردهما السيوطى فى المزهر . وأول هذين الخبرين ما رويه أبو عمرو بن سعيد بن وهب الثقفى من أنه سأل حماداً أن يُملى عليه قصيدة لأخواله بنى سعد بن مالك ، فأملى عليه حماد شعراً نسبه إلى طرفة وهو لأعشى همدان . والخبر الثانى ما يرويه سعيد بن هُرَيم البرجمى عمن يثق به من أن أعرابياً أنشد حماداً قصيدة لم تُعرف ولم يُدْرَ لمن هى ، فاختلفت الأقوال فى قائلها ، فقال حماد : اجعلوها لطرفة . وكلا الخبرين فى المزهر وحده ، لم نقف عليه فى كتاب آخر . هذا إلى أن السيوطى متأخر . وفى هذا كله تجريح لكلا الخبرين ؛ وقد يبدو لنا الخبر الأول صحيحاً حين نعلم أن حماداً بكرىّ الولاء ، وأن طرفة شاعر بكرى ، وأن حماداً لهذا قد ينسب إليه ما لم يقله . ولكننا نعود فنسأل : ماذا حدا بأبى عمرو بن سعيد ، وخؤولته فى بنى سعد ابن مالك المتحدرين من بكر بن وائل ، إلى أن يفضح أمر حماد ، صديقه وشريكه فى هوى بكر ، وإلى ألا يسكت عليه حين ينسب شعراً إلى طرفة ، وهو بكرى ، بل من بنى سعد بن مالك ؟ ثم إننا نعود فنسأل أيضاً : كيف ينسب حماد إلى طرفة شعراً يعرف أبو عمرو بن سعيد وغير أبى عمرو بن سعيد أنه لأعشى همدان ؟ وهل هذه هى حال حماد ، الذى كان يُخفى انتحاله ، فيما يقول المفضل الضبى ، إلا على العالم الناقد ؟

وأما الخبر الثانى فقد يبدو صحيحاً أيضاً ؛ لأن حماداً ، وهو بكرى الهوى ، نسب ما رواه الأعرابى إلى طرفة دون غيره ، وهو شاعر بكرى . ولكننا نقول إن سعيد بن هريم البرجمى لم يصرح باسم من حدثه هذا الحديث ، وفى هذا تجريح لروايته . ونقول أيضاً إن سياق القصة يوحى بأن القوم كانوا مختلفين فيمن يمكن أن يقول هذا الشعر من الشعراء الجاهليين ، وأن حماداً

حين جعل الشعر لطرفة كان يرى أن هذا الشعر يتفق ومذهب طرفة . فالقصة إذن ، إذا صحت ، لا تدل على انتحال حماد أصلا ، ولكن تدل على نوع من التحقيق كان يقوم به حماد ومن معه ، نوع من التحقيق يتناول مذاهب الشعراء الأقدمين وأساليبهم في صوغ الشعر لينتهي من ذلك إلى نسبة ما رواه الأعرابي إلى من قد يصح صدوره عنه .

٣ — تمحيص رواية ابن عبد ربه

يذكر ابن عبد ربه أن حماداً كان يقول : مامن شاعر إلا قد حقفت في شعره أبياتاً فجازت عنه إلا الأعشى أعشى بكر فإني لم أزد في شعره قط غير بيت وهو :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت
من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وأقول: هذه رواية لم ترد إلا في كتاب ابن عبد ربه ؛ وما كان أجدرها ، إن كانت صحيحة ، أن ترد في غيره من الكتب ، ولا سيما كتب المشارقة . ثم أقول : وهناك رواية أخرى تقول إن أبا عمرو بن العلاء هو الذي وضع ذلك البيت على الأعشى ، وإن شهد على نفسه بذلك . فهنا إذن روايتان ، تعارض كل منهما الأخرى .

قد محصنا إذن تلك الأقوال والأخبار التي تواردها كتب القدماء في صدد انتحال حماد ، وانتهينا إلى أنها تقوم دليلا على أن حماداً كان بالغ الانتحال وكنا قدمنا لهذا التمحيص بأدلة عقلية ونقلية توحي بأن حماداً لم يكن بالغ الانتحال كذلك . وهكذا يكون قد استقام لنا التدليل على رأينا في انتحال حماد ، من أنه لم يبلغ ذلك المدى الذي تصفه لنا كتب القدماء ؛ ومن أن ما صح منه كان صدى لحال الرواية في عصر حماد واستجابة لنوازعها ، فإن حماداً لم يكن مشغوفاً بالانتحال ما كفاً عليه جاعلا له همه وقصده .

٦ — مآخذ المتحاملين على حماد :

قدمنا في صدد الكلام عن حياة حماد أنه كان ماجناً فاسقاً مستهتراً . ونقول هنا إن هذا بعض ما دعا القدماء إلى الشك في روايته ، وإلى اتهامه بالانتحال . يقول السيوطي في المزهر (ج ١ ص ٧٦) : « ويؤخذ من هذا أن العربي الذي يحتج بقوله لا يشترط فيه العدالة ، بخلاف راوي الأشعار واللغات » . ومعنى هذا أن راوي الأشعار واللغات يجب أن يكون عدلا ، وإلا رفضت روايته . وحماد لم يكن عدلا ، لأنه كان ماجناً فاسقاً مستهتراً .

وأما تحامل المعاصرين له عليه ، وطعنهم في روايته ، فهما مظهر من مظاهر الحسد والغيرة . فقد كان كثير الرواية ، بل كان أحفظ الجميع ، وكان لا يسأل عن شيء إلا عرفه . فلم يجد معاصروه مطعناً في روايته من نقص وقصور ، ولم يمكنهم اتهامه بقلة الرواية ؛ فزعموا أن روايته غير صحيحة . وأنا أحب أن أنبه إلى أن هذه حال المتعاصرين من العلماء في كل الأزمان والأقطار . والشواهد على هذا كثيرة في أيامنا هذه . فقد ينفس الناس على أديب عبقريته ، فيرمونه بالكفر والمروق ، وقد ينفسون على كاتب إنتاجه الكثير ، فيزعمون أنه إنما ينقل عن الغربيين . هذا وذاك نسمعه في عصرنا هذا ، وهو عصر مثل باقي العصور ، حاله حالها وناسه ناسها . واستمع إلى السيوطي وهو يقول (ج ٢ ص ٤٠٢) : « وكان أبو زيد وأبو عبيدة يخالفانه ويناوئانه (الكلام عن الأصمعي) كما يناوئهما ، فكلهم كان يطعن على صاحبه بأنه قليل الرواية ولا يذكره بالتزيد » . فهذه حال أبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي ، وهي حال كل الأحوال ، لها نظائر في كل العصور .

٧ — خاتمة

هذا هو حماد كما طالعنا به البحث الطويل ، وهذا هو رأيي فيه وفي روايته . وهو دون ريب من أعظم رجال الرواية العربية ، ولاسيما رواية الشعر . ولئن كان قد طال الطعن عليه وعلى روايته ، فقد آن لنا أن نحييه ونحيي روايته .

ولكني لا أترك القلم قبل أن أهدي هذا البحث إلى أستاذي الجليل الدكتور طه حسين بك ، وقبل أن أسأله رأيه في مقدماته ونتائجه . وأنا أرجو أن يكون رأيه فيّ حسناً ؟ إني إذاً لسعيدٌ .

السيد يعقوب بكر